

قراءة في كتاب " التدين في المجتمع المغربي. مقارنة سوسولوجية لمدينة وجدة "  
للدكتور إدريس الصنهاجي\*

**Moroccans of the world and the affiliate link, between the requirements of the family code and the constraints of private international law**

محمد امباركي<sup>1</sup>

ملخص

صدر كتاب " " التدين في المجتمع المغربي. مقارنة سوسولوجية لمدينة وجدة " سنة 2020 عن مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس. يقع الكتاب في 283 صفحة، يتوزع بين تقديم، مدخل منهجي، ثلاث فصول وخاتمة تضم أهم الخلاصات وبيبليوغرافية. ويسعى فيه الباحث إلى تفكيك تجليات حضور التدين بمدينة وجدة من خلال الإنصات إلى فاعلين متعددين ينتمون إلى الحقل الديني وغير الديني والرصد السوسولوجي لتمثلاتهم لهذه المسألة على مستوى أبعادها الرمزية والمؤسسية والقيمية انطلاقا من أدوات منهجية هي من صميم مناهج البحث السوسولوجي خاصة على مستوى الطرائق الكيفية.

الكلمات المفتاحية: التدين، مقارنة سوسولوجية، الحقل الديني، عودة الدين.

**Abstract**

The book *Religiosity in the Moroccan Society: A Sociological Approach to the City of Oujda* was published in 2020 by the Psychological and Social Research and Studies Laboratory, Faculty of Arts and Humanities, Dahr Al-Mahraz, University of Sidi Mohamed ben Abdullah, Fez. The book contains 283 pages divided between an introduction, a methodological approach, three chapters, and a conclusion that embodies the most important results and a bibliography.

**Keywords:** religiosity, a sociological approach, the religious field, the return of religion.

\*الدكتور إدريس الصنهاجي أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز. جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس. صدر له كتاب " علم الاجتماع الديني بالمغرب: مقدمات نظرية ". دار النشر مقاربات. فاس 2018

<sup>1</sup> ، باحث في سلك الدكتوراه. تخصص علم الاجتماع. جامعة ابن طفيل. المغرب.

## تقديم

بداية لا بد من الإقرار بأن هذا العمل استغرقت مدة إنجازه أزيد من عشر سنوات جمعت بين ممارسة ميدانية شاقة وانشغالات نظرية لم تكن هينة وخالية من المخاطر بما فيها مخاطر "التأويل الأيديولوجي" للباحث وحذر الذوات المبحوثة<sup>2</sup> ومقاومتها أو استجابتها الضعيفة والمتردة لدعوات الباحث، خاصة وأن هذه الانشغالات تلامس حقا معرفيا واجتماعيا ظل تحت سلطة القراءة التيولوجية والفقهية وبعيدا عن مجهر التشريح العلمي عامة والقراءة السوسولوجية بشكل خاص، وبذلك فهو يشكل أطروحة سوسولوجية غنية وتفكيكية لمكونات الحقل الديني على المستوى الميكروسوسولوجي (مدينة وجدة) وتحولات الممارسة الدينية تمثلا وسلوكا من خلال البنيات الدينية المحلية واستنطاق آراء وتصورات فاعلين متعددين في الحقل الديني وغير الديني في اتجاه استكشاف العوامل الرئيسية للحضور الديني الملحوظ بمجتمع البحث، ومن جهة أخرى " المساهمة في تثبيت وترسيخ ممارسة سوسولوجية مغربية، تجعل من الظاهرة الدينية موضوعا للدراسة كمختلف الظواهر الاجتماعية، أي رفع طابع القداسة عنها، وجعلها موضوعا سوسولوجيا عاديا"<sup>(1)</sup>.

في سياق وعي الدكتور إدريس الصنهاجي بخطورة وحساسية الاقتراب العلمي من الظاهرة الدينية كما جاء في كتابه الأول " علم الاجتماع الديني. مقدمات نظرية " الصادر سنة 2018 والذي يعتبر تأطيرا نظريا للتجربة البحثية الميدانية التي ترجمها الكتاب الثاني الذي نحن بصدد عرض أهم مضامينه، ركز على أن دراسته هاته قد تكون دافعا لطرح إشكالات وأسئلة تساهم في توسيع وتعميق البحوث ومراكمة الدراسات. وقد انطلق من مقدمة نظرية أساسية ألا وهي عودة الديني " من حيث الحضور الكاشف لمظاهر التدين في

(1) الصنهاجي إدريس " التدين في المجتمع المغربي. مقارنة سوسولوجية لمدينة وجدة. مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز. جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس. 2000. ص 22

الفضاء العمومي، وحديث مختلف الفاعلين في مجالات السياسة والعمل الجمعي والفكر والثقافة، عن عودة الناس إلى الممارسة الدينية" (2).

فماهي أهم مضامين الكتاب؟ ماهي خلاصاته الأساسية؟ وقبل ذلك كيف قارب الباحث موضوعه من الناحية المنهجية؟

### الإطار المنهجي للدراسة: المقاربة الكيفية كاختيار منهجي

انطلاقاً من براديغم "عودة الدين"، يسعى الباحث إلى تشخيص تحولات الممارسة الدينية في السياق الدولي والوطني ورصد أبرز تحولات التدين على المستوى المحلي، وهكذا يخصص مدخل الكتاب للمقاربة المنهجية التي من خلال تأمل مفاصلها ودورها الشاقة يتضح الانخراط الذي للباحث في استنطاق تصورات ورؤى الذوات المبحوثة سواء في بعدها الفردي أو الجماعي أو المؤسسي. من هنا اعتمد الباحث على تقنيات البحث الكيفية والمتعددة من ملاحظة ومقابلة ومنهج السيرة وكذا تقنية المجموعات البؤرية داخل وحدة سوسيوإقليمية للبحث هي مدينة وجدة، حيث خاض الباحث مغامرة ميدانية تطلبت منه الكثير من الوقت والجهد والصبر ومعاودة المعاينة والحوار والاتصال وحضور لقاءات مباشرة وملتقيات وندوات لفاعلين محليين (أحزاب "دينية"، طلبة معهد البعث الإسلامي للتعليم العتيق، فاعلين غير إسلاميين، رئيس المجلس العلمي الأعلى، موسم الزوايا خاصة الملتقى العالمي للتصوف الذي تنظمه الزاوية البوتشيشية سنوياً.. الخ)، والإصرار على استكمال هذه المغامرة الشاقة التي كان فيها للمبحوث بصمات قوية وكان الباحث في وضعية إنصات عقلاني ومحاولة للفهم والتفسير بطريقة تراعي معايير التجرد والموضوعية وتتجنب الإسقاط والتعسف أو التماهي مع الذوات المبحوثة حيث تفادى ما نبه إليه السوسيولوجي الفرنسي ألا تورين بكون "الخطورة التي تهدد كل معرفة اجتماعية هو التماهي مع الفاعل" (3). ولعل الإشكالية والهدف المركزي الذي وجه رحلة البحث هاته هي الإحاطة ب" الأسباب الحقيقية الكامنة وراء الحضور البارز لمظاهر التدين لدى ساكنة

(2) الصنهاجي إدريس. " علم الاجتماع الديني. مقدمات نظرية. مقاربات للنشر والصناعات الثقافية.

2018، ص 8

(3) Alain Tourain « Pour la sociologie » Edition du seuil. 1974. P 16

مدينة وجدة، ومدى تأثير ذلك على السلوك الاجتماعي لديهم " (4)، وذلك انطلاقاً من فرضية أن " التحول الذي يطال الممارسات الدينية لسكان مدينة وجدة هو نتيجة لتحول حدث في أفكارهم وتصوراتهم وتمثلاتهم وتأويلاتهم الدينية " (5)، ومن ثمة يضع الباحث مقدمة نظرية عامة ومهمة لاختبارها على أرض الميدان ألا وهي أن " المؤسسات الدينية التقليدية ( المساجد، الزوايا والتعليم العتيق والعلماء)، وجمعيات الإسلام السياسي بوجودها هي التي أحدثت تحولاً في قيم الناس وتصوراتهم وتمثلاتهم الدينية، من خلال توظيف كل آليات "الدعاية" الدينية، وفق أفكار معينة،... ويعزى إليها الحضور اللافت للمظاهر الدينية بالمدينة. " (6).

ولا شك أن الانتصار للمقاربة الكيفية من الناحية المنهجية، قد أملت طبعاً الظاهرة المدروسة، وهذا ما يعلنه الباحث مبكراً بقوله " هنا يمكننا القول أن طبيعة الموضوع هي التي حددت اختيار المنهج والأداة " (7) فأين يتجلى الاستعمال البين لأدوات البحث الكيفي في الدراسة؟

من الراجح أنه على مستوى استعمال الملاحظة، ورغم إقرار الباحث بتعدد أنواع الملاحظة فهذا لم يمنعه من الانخراط في الملاحظة بالمشاركة من خلال تتبع، معاينة ومعايشة تعبيرات السلوك الديني بالفضاء العام كالمشاركة في مظاهرات جماعات دينية معينة أو في العلاقة بأنشطة رئيس المجلس العلمي المحلي، ويقول الباحث في هذا الشأن " فالممارسة مع وداخل مجموعة الفاعل هي الكيفية الوحيدة لفهم ممارسة الفاعل، كما يبين بورديو (8)، وتعتبر الملاحظة من المراحل الأساسية في البحوث داخل العلوم الاجتماعية حيث " في حالة الملاحظة المباشرة يتوجه الباحث إلى المبحوث للحصول على المعلومة. ومن

(4) الصنهاجي إدريس " التدين في المجتمع المغربي. مقارنة سوسولوجية لمدينة وجدة. مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز. جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس. 2000. ص 22

(5) نفس المرجع السابق. ص 10

(6) نفس المرجع السابق. ص 11

(7) نفس المرجع السابق. ص 20

(8) نفس المرجع السابق. ص 13

خلال الجواب عن الأسئلة تتدخل الذات المبحوثة في إنتاج المعلومة(9)، وتكون أداة الملاحظة إما الاستمارة أو دليل المقابلة (Guide d'entretien) كما أن دليل المقابلة " لا يتم بالصدفة، فهو يوافق فرضيات البحث(10)، وهكذا عمل الباحث على تبني المقابلة نصف الموجهة بقوله " اعتمدت في هذا العمل على المقابلة شبه الموجهة مع الفاعلين المحليين السياسيين والمدنيين والدينيين وبعض الأكاديميين (11)، ويبدو من خلال دليل المقابلة الذي صاغه الباحث أنه كان حريصا على احترام آراء وتمثيلات المبحوثين ومنسجا مع أخلاقيات تدبير المقابلة من حيث أن من الواجب "على المحاور (كسر الواو) صياغة تدخلاته بطريقة منفتحة قدر الإمكان...ومن الأولى له التزام الحياد من الانخراط في مضمون المقابلة...أي تبني موقف الحياد اليقظ، توجيهه أقل وأسئلة أقل، الاعتراف بالمحاور (فتح الواو) ككفاءة والقبول غير المشروط لاقتراحاته باعتبارها فهما مشروعا للمشاكل والوضعيات المدروسة دون فرض مقولاتنا العقلية.."(12).

إن طبيعة الموضوع من حيث الإشكالية والفرضيات والذوات المبحوثة، فرضت على الباحث تنوع عدته المنهجية، حيث إلى جانب الملاحظة والمقابلة استدعى تقنية المجموعة البؤرية ومنهج السيرة سيما أن استكشاف تصورات بعض مكونات حقل الدراسة خاصة طلبة معهد البعث الإسلامي للعلوم الشرعية دفعت الباحث إلى تنشيط مقابلات جماعية بؤرية من خلال أسئلة حول قضايا عدة يكون فيها النقاش والتدافع مفتوحين مع قليل من توجيه الباحث من خلال الأسئلة المفتوحة وإعادة صياغة آراء وأفكار المبحوثين، كما أن

(9) Luc Van Campen houdt Raymond Quivy Manuel de recherche en sciences sociales. 4ème édition. Dunod. Paris 1995, 2006 ; 2011. P 150

(10) Ibid. P 160

(11) الصنهاجي إدريس " التدين في المجتمع المغربي. مقارنة سوسيولوجية لمدينة وجدة. مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز. جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس. 2000. ص 14

(12) Luc Van Campenhoudt Raymond Quivy Manuel de recherche en sciences sociales. 4ème édition. Dunod. Paris 1995, 2006 ; 2011. P 64-63

منهج السيرة لجأ إليه الباحث لرصد التاريخ الاجتماعي والمسارات السوسيو مهنية والرمزية لرئيس المجلس العلمي المحلي بوجدة والتعرف على مصادر وموارد تأثيره وسلطته.

### مدينة وجدة وتجليات الممارسة الدينية

خصص الباحث الفصل الأول من الكتاب لرصد مختلف الخصائص السوسيو ديمغرافية والتحولات الاقتصادية والاجتماعية للوحدة السوسيو مجالية للبحث أي مدينة وجدة خاصة ولجهة الشرق بشكل عام من خلال استحضار البعد التاريخي لهذه التحولات وخصائصها البارزة وضمنها دينامية المنظومة الدينية وتأثيراتها على الساكنة وذلك من خلال:

المجلس العلمي المحلي، المساجد والمدارس باعتبارها بنايات دينية حكومية الزوايا والأضرحة، الجمعيات والجماعات الدينية، التعليم العتيق من خلال نموذج معهد البعث الإسلامي للعلوم الشرعية، باعتبارها بنايات دينية غير حكومية وخلال هذا الفصل الذي ينقسم إلى عدة مباحث، اشتغل الباحث على الرصد السوسيو تاريخي والمونوغرافي لمجتمع البحث من خلال الوقوف عند بعض التحولات التي طالت الجوانب الديمغرافية وكذلك المشهد الديني المحلي بوجدة، وهكذا يؤكد الباحث تحول المدينة المتاخمة للحدود المغربية الجزائرية إلى منطقة استقرار للعديد من الاتجاهات الهجرية بعد أن كانت منطقة عبور حيث يسجل " مع عدد من المهتمين بالشأن المحلي لمدينة وجدة هو تحول هذه الأخيرة إلى مركز استقرار بعد أن كانت محطة عبور أو انطلاق في اتجاه المراكز الحضرية المغربية الأخرى حتى بالنسبة لبعض المنتسبين إليها" (13)، وعلى مستوى خصائص الحقل الديني المحلي يستدعي الباحث ملاحظة " جورج دراغ " التي تقول أنه " وعلى غرار المناطق المغربية الأخرى، كانت مدينة وجدة ونواحيها تعرف تأسيس العديد من الزوايا في فترات مختلفة، إلا أن المنطقة الشرقية كانت تسجل أكبر نسبة من المنتسبين

(13) الصنهاجي إدريس " التدين في المجتمع المغربي. مقارنة سوسولوجية لمدينة وجدة. مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز. جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس. 2000. ص 51

لهذه الزوايا(14)، وكذلك ومن خلال معايناته وملاحظاته المباشرة يفسر الدور الحيوي للزاوية البوتشيشية الذي يتجاوز الوظيفة الدينية والروحية الظاهرة ليمتد إلى أدوار أخرى متشعبة يعبر عنها الباحث بقوله " ومن خلال زيارتي للملتقى العالمي للتصوف، باعتباره أكبر وأضخم نشاط للزاوية، يمكن تسجيل العديد من المظاهر. ذلك أن اللقاء لا يكون ببعد ديني فقط وإنما هو بمثابة مهرجان ثقافي (ندوات) تجاري ( بيع بعض المنتوجات المرتبطة بالممارسات الدينية كالسبحة والجلباب والأقمصة...الخ)، واجتماعي لما يوفره من شبكة للعلاقات والمصالح، واقتصادي لما يوفره من حضور لبعض رجال الأعمال من مختلف الجهات في المغرب(15).

يستنتج الباحث في هذا الفصل أن من مميزات مدينة وجدة هي استمرارها كمدينة حضرية بروح قروية وكذلك فضاء دينيا حيويا، إذ يؤكد أن " الطابع القروي للمدينة، الذي كان بارزا خلال القرن التاسع عشر لم يختف نهائيا من مجالها، بل لازال قائما ولو بنسبة أقل. ويشهد على ذلك أسماء العديد من الأحياء التي تحمل صفة "فيلاج" (قرية) والمعروفة بهذه الأسماء لدى عامة الناس مثل فيلاج كولوش، وفيلاج الطوبة، وفيلاج هكو، وفيلاج سي لخضر.."(16)، ومن جهة ثانية فالمدينة حاضنة دينية مهمة من حيث المؤسسات والجمعيات والجماعات التي صنفها إلى بنيات دينية حكومية وأخرى غير حكومية، لكن في كلتا البنيتين تحضر البصمات القوية للفاعل الديني المركزي أي رئيس المجلس العلمي الذي سيخصص له الباحث فصلا مستقلا وهو الفصل الثالث والأخير من الكتاب.

أما محور الفصل الثاني فهو مسألة الفاعل المحلي والتدين حيث يطرح الباحث سؤالاً موجهاً إلى مختلف الفاعلين المحليين في مختلف حقول الفعل الدينية، الحقوقية، السياسية، النقابية، الجمعوية والأكاديمية: هل تعتبر مدينة وجدة مدينة التدين؟ وماهي تظاهرات الممارسة الدينية في الفضاء العمومي؟

(14) نفس المرجع السابق. ص 66

(15) نفس المرجع السابق. ص 73

(16) نفس المرجع السابق. ص 36

في مقارنة هذه الإشكالية يستعرض الباحث بعض تجليات التدين بمدينة وجدة من خلال انتشار خريطة المساجد إذ " تحتل وجدة المرتبة الأولى وطنيا من حيث عدد المساجد بالمقارنة مع ساكنتها(17)، احتلال التدين لمختلف مكونات الفضاء العمومي والمناسبات الاجتماعية أو ما صنفه ضمن عودة التدين، هذه العودة التي حاول قياسها من خلال بعض المؤشرات الكيفية من قبيل إقبال النساء والشباب على الصلاة، هيمنة ارتداء الحجاب وسط الفتيات بما فيهن الطفلات، بالإضافة إلى الحضور القوي لحركات وجماعات الإسلام السياسي على مستوى الجمعيات، جامعة محمد الأول بوجدة، مركز الدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية... الخ، ومن ثمة يستخلص الباحث على ضوء ما عبر عنه أغلب المبحوثين أن قوة التدين بمدينة وجدة مرده إلى وجود أرضية محلية متاحة يتقاطع فيها دور العلماء والفقهاء، الجماعات والجمعيات الدينية، بالإضافة إلى السلطة الرمزية والمادية لرئيس المجلس العلمي المحلي وكاريزمته التي تعرف توزيعا اجتماعيا ومؤسسيا ملحوظا على المستوى الميكروسوسولوجي والماكروسوسولوجي حيث يحظى بدعم الدولة والنخب المحلية التي تمتلك الحظوة الاقتصادية والاجتماعية بالمدينة والتي أحيانا كثيرة تفضل أن يظل دعمها له غير مرئي لدى عموم الناس والمجتمع. هذا دون إغفال - كما يؤكد الباحث - تأثير المناخ العالمي الذي يشهد تزايد الدين في صياغة العديد من الأحداث والتفاعلات ودور هذا المناخ في استنهاض وصحوة "الإسلام السياسي" وتوليد بعض النزعات الدينية المتطرفة /وكذلك كما عبر بعض المبحوثين غير الإسلاميين " تراجع فاعلية الأحزاب الديمقراطية، وجمعيات المجتمع المدني التي تناصر قيم الحداثة والديمقراطية (قضايا المرأة وحقوق الإنسان وحرية التعبير والإبداع. الخ)(18).

إلا أنه، لما يتحدث الباحث عن عودة الدين فهو يحيط حديثه بكثير من الحذر خاصة على المستوى المحلي باعتبار أن التدين متأصل ولم يغادر البنيات السوسيوثقافية كي يعود، فقط المثير للانتباه والملاحظة هو عودة أشكال جديدة من التدين هي قريبة من الممارسة الدينية "الاستعراضية والصورية" عبر احتلال الفضاء العمومي عن طريق العديد من الأفعال والطقوس الاجتماعية التي تتزايد بالتوازي مع تزايد قيم الفساد والغش والنفاق

(17) نفس المرجع السابق. ص 184

(18) نفس المرجع السابق. ص 120



والاتكالية...، وهذا مرده إلى التأثير القوي لموجة "الإسلام الأيديولوجي" الذي تعمل على تسويقه والترويج له حركات الإسلام السياسي لإبراز قوتها وطموحها إلى الهيمنة على الدولة والمجتمع.

وإذا كانت القيم، من المنظور السوسيولوجي، "ليست سوى تفضيلات جماعية أو أشياء مفضلة جماعيا *Préférences collectives*، تحيل على طرق في الوجود والتصرف يرى فيها أشخاص أو جماعات، مثلا عليا" (19)، كما أنها أي القيم لا تعرف تعددا فقط، بل تراتبية، تبعا لمدى تشبثنا واقتناعنا بها. فهناك سلم للقيم وبالتالي صراعا بين القيم. ليس كل الناس يقبلون بإجماع سلم القيم السائد، فهناك باستمرار تناقضات وتعارضات تخلق توترات على مستوى العلاقات الاجتماعية الداخلية لأسباب سياسية واقتصادية واديولوجية وغيرها" (20)، فلا مندوحة أنها تعتبر من الحقول الأساسية للصراع والتدافع بين المشاريع والرهانات المتنافسة داخل المجتمع. ويبدو هذا الأمر جليا في هذه الدراسة إذ يشكل الحقل القيمي إحدى ساحات الصراع بين الإسلاميين وغير الإسلاميين و آية مهمة لرصد دينامية التحولات التي تطال التدين و القيم في حد ذاتها في مجتمع البحث أي مدينة وجدة والتي لا تنفصل عن ما يجري من تحولات في المجتمع المغربي عامة والذي يشهد "الحضور المركزي والمكثف للقيم الدينية في المنظومة العامة لقيم المغاربة" (21). وفي هذا المضمار يثير الباحث قضية التناقض الذي يعتري القيم التقليدية وبعض التعبيرات عنها كظاهرة الشباب الحداثي في السلوك والرجعي في المواقف خاصة في قضايا المرأة والحريات الفردية وحقوق الإنسان أو بالنسبة للنساء اللائي تحول ارتداء الحجاب لدى جزء مهم منهن إلى نوع من الموضة والافتتان أي "أنه تحول من رمز ديني إلى معطى اجتماعي" (22)، وفي عملية رصد المفارقات التي تميز القيم بين التقليد والحداثة، وانطلاقا من قناعة أساسية

(19) فوزي بوخريص. مسألة القيم في التنظيمات الجموعية بالمغرب. نح مقارنة سوسيولوجية. مجلة

تحولات معاصرة. العدد 1. غشت 2016. ص 51

(20) نفس المرجع السابق. ص 53

(21) الصنهاجي إدريس " التدين في المجتمع المغربي. مقارنة سوسيولوجية لمدينة وجدة. مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز. جامعة سيدي محمد بن عبد

الله فاس. 2000. ص 121

(22) نفس المرجع السابق. ص 127

مفادها أن "الحياد القيمي ضرورة إبستمولوجية داخل حقل العلوم الاجتماعية" (23) سعى الباحث جاهداً إلى التزام ما يسميه "ماكس فيبر" بالحياد الأكسيولوجي الذي "يعد أداة هامة لصدقية أي خطاب علمي وكل دراسة علمية"... ويوجد الحياد القيمي أساسه في عدم الجمع بين التقييم النظري والتقييم العملي، وأيضا في التمييز بين أحكام القيم وأحكام الوقائع" (24). ولا شك أن هذا الموقف المنهجي والأخلاقي هو الذي أتاح المجال للباحث أن يعكس تصورات وأراء مختلفة ومتناقضة أحيانا للمبحوثين بشكل جعل من تلك التصورات والآراء قريبة من السوسولوجيا التلقائية وتعبّر عن وقائع اجتماعية حولها الباحث من خلال المجهود النظري والميتودولوجي إلى وقائع سوسولوجية قابلة للتفسير والفهم.

يخصص الدكتور إدريس الصنهاجي المبحث الثالث من الفصل الثاني لتشخيص وظيفة معهد البعث الإسلامي للعلوم الشرعية كنموذج لمدارس التعليم العتيق حيث يعتبر مرجعا مهما في هيكلية التصور الديني للمواطن المغربي على الصعيد المحلي من خلال إنتاج فاعل ديني محلي على شكل الخطيب وعالم المستقبل- بالمعنى الديني لمفهوم العالم-، وبالتالي إعادة إنتاج التصور التقليدي للدولة كدولة دينية والمجتمع كمجتمع ديني خالص وذلك على الرغم من انفتاح طلبة المعهد الذي يديره رئيس المجلس الأعلى المحلي، على بعض المعارف والعلوم الجديدة كالرياضيات والفلسفة. فالمعهد الإسلامي "ينتج ويعيد إنتاج عددا مهما من الفاعلين الدينيين بمدينة وجدة والجهة الشرقية، يتلقون تكويننا دينيا وفق الثوابت الدينية للمغرب" (25)

#### رئيس المجلس العلمي المحلي أو الكاريزمية المدعومة

يسعى الباحث خلال الفصل الثالث والأخير من الكتاب إلى استنطاق تأثير الفاعلين الدينيين المحليين من خلال استحضار شخصية رئيس المجلس العلمي المحلي "مصطفى بن حمزة" وتاريخها الاجتماعي والثقافي ومسارها العلمي والأكاديمي في مجال الثقافة الدينية

(23) إكرام عدنني. سوسولوجيا الدين والسياسة عند ماكس فيبر. منتدى المعارف. بيروت 2013. ص

115.

(24) نفس المرجع السابق. ص 115

(25) الصنهاجي إدريس "التدين في المجتمع المغربي. مقارنة سوسولوجية لمدينة وجدة. مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز. جامعة سيدي محمد بن عبد

الله فاس. 2000. ص 149

وموقعها المؤسسي باعتبارها من أبرز وجوه النخب الدينية ذات الامتدادات الثقافية والاجتماعية والحضور المؤسسي على المستويين المحلي والوطني (عضوية المجلس العلمي الأعلى، رئاسة المجلس العلمي المحلي، من مؤسسي المعهد الإسلامي للعلوم الشرعية بوجدة ومدير له، تأسيس العديد من الجمعيات ورعايتها أيديولوجيا وماليا..)، وكذلك سلطته الرمزية التي يستمدتها من الرأسمال الديني والعمل الاجتماعي الخيري ودعم البورجوازية المحلية ورضى الدولة. ولا شك أن كاريزمية الرجل/المؤسسة قريبة جزئيا من التصور الفيبري للكاريزمية التي تعني امتلاك قدرات فائقة ومتفردة عن بقية الناس، وهي "مفهوم نجده في الثيولوجيا المسيحية وهي الصفة المميزة لشخص ما موهوب (Doué)، وله قدرات وخصائص فوق طبيعة أو فوق إنسانية، وبالتالي فالخضوع يكون للصفة المقدسة والبطولية أو للقيمة المثالية للشخص الحاكم.. فالكاريزمية إذا عند ماكس فيبر هي الشرعية المطلقة" (26). وهنا لا بد من التأكيد على أن كاريزمية الرجل ليست محض ملكة للفرد بل إنها تتأطر ضمن شبكة من العلاقات الاجتماعية، وكما يلاحظ بيير بورديو "الكاريزما لا تكون كذلك -فعلا- إلا إذا كانت الرسالة الكاريزمية منسجمة تماما مع استعدادات أو قل هابيتوس المريدين والأتباع" (27)، ومن ثمة فالقيمة المادية والرمزية لرئيس المجلس العلمي المحلي مستمدة من كاريزمية سياسية أعلى منه وسلطة اقتصادية نافذة في ظل بنية سياسية وسوسيوثقافية يحكمها منطق العلاقة القوية والمتشابكة بين السلطة، الثروة والمقدس.. فأين يمكن ملامسة كاريزما الرجل؟

إن الملاحظ كما يقول الباحث " أن معظم الفاعلين المحليين الذين حاورناهم، من المبحوثين وغيرهم، يؤكدون هذا الأمر بالنسبة لمبحوثنا حيث يختزلون المجلس العلمي المحلي ومعهد البعث الإسلامي والجمعية الخيرية الإسلامية ومركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية في شخص بنحمة وإن كان مجرد مستشار في بعض هذه الهيئات الشخص يتخذ القرارات ويمنح الأموال ويعطي الوعود المتعلقة بمؤسسة معينة دونما حاجة للرجوع

(26) إكرام عدني. سوسولوجيا الدين والسياسة عند ماكس فيبر. منتدى المعارف. بيروت 2013. ص

165.

(27) براين ترنر. بيير بورديو وسوسولوجيا الدين. ترجمة طارق عثمان. دورية نماء لعلوم الوحي

والدراسات الإنسانية. العدد 3. صيف علم 2017. ص 236-237

إلى الجهاز المخول بذلك. إنه مؤسسة متحركة" (28)، كما يحظى بشرعية "اجتماعية" لدى فئات واسعة من المجتمع المحلي حيث " يربط العديد من الناس ما يقع بالمدينة ليس فقط في المجال الديني، وإنما في مجالات أخرى ومنها السياسية والاقتصادية بالسيد مصطفي بنحمزة، خصوصا لما رأوا علاقته المتينة بالسلطة، بالولاية...وعلاقته برجال الأعمال والمهندسين والأطباء والصيادلة وغيرهم من فئات وهيئات المجتمع، لكن من المؤشرات التي ساهمت في تشكيل كاريزما الرجل أيضا، وربما أهمها في نظرنا، وجعلت الفاعلين المحليين يعتبرونه الأكثر تأثيرا في شأن مدينتهم الثقافي، هو علاقته بأغنياء المدينة، أهل الخير كما يسميهم، وبالمشاريع الاجتماعية الخيرية الإحسانية، التي تدخل في مشروعه الديني المجتمعي. (29)

إن هذه الخطوة المادية والرمزية التي يتمتع بها الرجل تتجاوز مجرد تقديم خدمات اجتماعية بوازع ديني أو الإشراف على الشأن الديني التقليدي، بل إنها تتقاطع مع مشروع شمولي يتوخى الدولة الدينية وتنفيذ هذا المشروع تحت شعار الفهم " العلي " للدين والدفاع عن الإسلام الصحيح، وفي هذا الإطار يقف الباحث بشكل دقيق عند الازدواجية التي تميز سلوك هذا الفاعل الديني المركزي والتي هي في الواقع خاضعة لعقلانية غائبة واستراتيجية براغماتية مدروسة، فمن جهة أولى " تعكس المواقف المتشددة لمبحوثنا، حسب ما يظهر، تخوفه على الإسلام. لكن إذا ذهبنا بالتحليل إلى أقصى مداه، نستطيع القول أن الأمر لا يتعلق بالتخوف من انتهاء الإسلام أو تراجعها، فالإسلام باق ولن يتأثر بحرية المعتقد أو غيرها، إنما الحقيقة الخفية أو البعيدة (المدركة أو لا ) هي التخوف من انتهاء السلطة السياسية للإسلام (30)، ومن جهة ثانية " رغم ما يبدو على الرجل من تشدد اتجاه بعض القضايا ( حرية الخطيب، قدسية اللغة العربية، منع تعدد الزوجات، قتل المرتد...)، إلا أنه سرعان ما يتراجع أو يصمت حينما تصدر الدولة قرارات أو قوانين عكس

(28) الصنهاجي إدريس " التدين في المجتمع المغربي. مقارنة سوسولوجية لمدينة وجدة. مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز. جامعة سيدي محمد بن عبد

الله فاس. 2000. ص 218-219

(29) نفس المرجع السابق. ص 168

(30) نفس المرجع السابق. ص 223

ما يعتقده ويروج له ويعتبره من صميم الدين. فمغريات السلطة المادية والرمزية تجعل صاحبها، في تقديرنا، قابلا لتغيير المواقف والممارسات.(31)

إن خصائص المشروع الذي يحلم به ويدافع عنه رئيس المجلس العلمي سواء صرح بذلك أو لم يصرح، تجد تعبيرها الواضح في مواقفه كفاعل ديني يحظى بمرئية ملحوظة على المستويين المحلي والوطني، من بعض القضايا التي تشكل مصدر نقاش وخلاف وتدافع بين الإسلاميين وغير الإسلاميين، ومن جملتها تمثل الدين كثنى فطري وليس كقضية اجتماعية، سلطة الخطيب وصلاحيته في الخوض في مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية التي تهم الناس من خلال مؤسسة المسجد، هذا بالإضافة إلى اعتبار اللغة العربية لغة مقدسة وكل من يعترض على هذا الفهم فهو يستهدف الدين الإسلامي وهوية الأمة بشكل مباشر، ولا شك أن موقف الرجل من العلمانية يعكس تصوره للسلطة تحت وصاية الفقهاء ورجال الدين " فأشد ما يرفضه ويكرهه الرجل الدعوة إلى العلمانية بما هي فصل للدين عن الدولة والسياسة، ناعتا أصحاب هذه الدعوة بالمستغربين الذين يريدون استنابات وفرض شئى غير إسلامي في بلد إسلامي، ضدا على تاريخه وثقافته وهويته(32)، وكذلك في قضايا المرأة، حرية المعتقد وقتل المرتد(33)، وبخصوص هاتين القضيتين الخلافيتين الأخيرتين يقول الباحث " ونظرا لارتباط حرية المعتقد بفتوى المجلس الأعلى القاضية بقتل المرتد، فقد أثارت هذه الأخيرة نقاشات واسعة وجدالا حادا بين مختلف الفاعلين المغاربة \*، بين مؤيد للفتوى ومعارض لها. وبما أن السيد مصطفى بنحزمة ينتمي للمجلس العلمي الأعلى وهو أحد أبرز أعضائه، فقد تكلف بالرد على كل الذين اعتبروا هذه

(31) نفس المرجع السابق. ص 224

(32) نفس المرجع السابق. ص 195

(33) نفس المرجع السابق. ص 212-213

\* الأمر يتعلق بالفتوى الصادرة عن المجلس العلمي الأعلى والواردة في كتاب صادر عن الهيئة العلمية المكلفة بالإفتاء سنة 2012، والتي أثارت جدلا حقوقيا وسياسيا كبيرا أدت الى التراجع عنها من طرف المجلس في وثيقة جديدة اسمها "سبيل العلماء".

الفتوى دعوة للقتل وتخلفا عن منطق العصر، وتراجعا للمغرب عن التزاماته الدولية في مجال حقوق الإنسان" (34).

وبالنظر إلى كون المقاربة الإحسانية تعتبر من أسس ومقومات مختلف الجماعات الدينية وعلى رأسها الفاعل الديني المركزي الذي يتميز بشبكات تأثير اجتماعية ودينية وأديوسياسية متعددة ومركبة، فقد خصها الباحث بالنقد السوسولوجي باعتبارها "مقاربة غير حقوقية ومؤطرة بالنص الديني وبالتالي فهي" تقوم على عاملي الصدق والثقة، وترتكز على الشخص عوض التنظيم. ففي المقاربة الإحسانية توضع العلاقات الشخصية مكان العلاقات المؤسسية، وتسود مظاهر الشخصية وتسيطر. (35)

الأمر يتعلق بالفتوى الصادرة عن المجلس العلمي الأعلى والواردة في كتاب صادر عن الهيئة العلمية المكلفة بالإفتاء سنة 2012، والتي أثارت جدلا حقوقيا وسياسيا كبيرا أدت إلى التراجع عنها من طرف المجلس في وثيقة جديدة اسمها "سبيل العلماء".

#### خاتمة

في ختام هذه المقالة و انطلاقا من القراءة التي قدمنا للكتاب أعلاه وحاولنا خلالها استعراض بعض المضامين والأفكار التي قدرنا أنها تستحق الانتباه، يمكن إجمال أهم الخلاصات في ما يلي:

الخلاصة الأولى هي أن الباحث الدكتور " إدريس الصنهاجي " فتح آفاق مهمة وواعدة للبحث السوسولوجي في المغرب وخاصة التأسيس المعرفي لسوسولوجيا الدين من زاويتين، زاوية التراكم الحاصل على مستوى الأدبيات والإنتاجات السابقة سواء خلال المرحلة الكولونيالية أو بعد الاستقلال بالنظر إلى كون الحقل الدراسي لسوسولوجيا الإسلام حقل خصب والعديد من الظواهر المرتبطة بالإسلام تحتاج إلى الدراسة السوسولوجية المستقلة المتحررة من سلطة الدولة ورجال الدين (36)، وزاوية اعتبار هذه

(34) نفس المرجع السابق. ص 212

(35) نفس المرجع السابق. ص 218

(36) الصنهاجي إدريس. " علم الاجتماع الديني. مقدمات نظرية. مقاربات للنشر والصناعات الثقافية. 2018. ص 143

المحاولة كفعل نظري وبحثي منفتح على الاجتهادات النظرية الحديثة في مجال المقاربة السوسولوجية للظاهرة الدينية كظاهرة اجتماعية مركبة وضمنها عودة الممارسة الدينية باعتبارها البرادغيم الأساسي الموجه لهذه الدراسة، وذلك بشكل لا يتطابق وتصور رواد علم الاجتماع للدين ومن بينهم دوركايم صاحب العبارة الشهيرة "لقد ماتت الآلهة"، حيث كان هؤلاء يعتقدون أن "الدين سيحتل مرتبة هامشية في المجتمعات الحديثة. وكان ماركس ودوركايم وفيبر يرون أن سيرورة العلمنة ستمضي قدما في الوقت الذي يصبح الناس فيه أكثر اعتمادا على العلم والتقانة في تفسير العالم الاجتماعي" (37)، إلا أنه لا ينبغي أن ننسى أهمية وقيمة الإنتاجات العلمية لكل من دروكهايم وفيبر في التأسيس الحقيقي لعلم الاجتماع العام ولعلم اجتماع الدين كفرع له (38). ولا يقتصر هذا التصور فقط على الرواد بل " آمن جيل ما بعد الحرب من العلماء الاجتماعيين بأطروحة العلمنة القاضية بأن الدين سيضمحل مع التحديث لا محالة. (39) ، بل إن بيير بورديو ذاته اعتقد أن الدين في العالم الحديث سائر نحو الاضمحلال، وأن وظيفته النهائية تتمثل في مساعدة الناس على إيجاد معنى لمواقعهم ضمن النظام الاجتماعي (40)، واعتبر أن "الدين ليس موضوعا مناسباً للسوسولوجيا. ففي محاضرة ألقاها أمام الجمعية الفرنسية للسوسولوجيا الدينية، نشرت فيما بعد بعنوان "سوسولوجيو الاعتقاد واعتقاد السوسولوجيين" شكك بورديو في قدرة السوسولوجيا على فهم المؤسسات الدينية من دون توسط حجاب الاعتقاد (41).

الخلاصة الثانية هي قدرة الباحث على تجاوز ما تسميه الادبيات السوسولوجية بسلطة " الرجل الأكاديمكوس (Homo Academicus)، أي أنه لم ينظر إلى الظاهرة المدروسة من فوق باسم سلطة معرفية وأكاديمية، بل إنه انخرط في ممارسة بحثية كان محورها خطاب الفاعلين الذي ترجم تصوراتهم وتمثلاتهم كشكل من أشكال إنتاج القول السوسولوجي العفوي، وكما يقول "ألان تورين" أنه ينبغي لعمل عالم الاجتماع أن يكون

(37) انتوني غيدنز. علم الاجتماع. ترجمة وتقديم الدكتور فايز الصباغ. مركز دراسات الوحدة العربية. الطبعة الأولى 2005. ص 586

(38) الصنهاجي إدريس. " علم الاجتماع الديني. مقدمات نظرية. مقاربات للنشر والصناعات الثقافية. 2018. ص 93

(40) نفس المرجع السابق. ص 230

الأداة التي بفضلها يكتشف الفاعل دلالة فعله وبالتالي ينتج تصرفات يمكن لعالم الاجتماع تحليلها(42).

الخلاصة الثالثة هي أن المقاربة الكيفية التي عالج بها الباحث الظاهرة من خلال العلاقة المباشرة بالفاعلين حسب العينات التي اختارها تجعل من عملية الإمساك بدينامية التدين وحركاته الصاعدة والنازلة على المستوى المحلي، عملية طموحة ومفتوحة تتوخى تقصي أعمق وأشمل من خلال مؤشرات كمية قابلة للتفسير والفهم وتتيح إمكانية رؤية المتحرك داخل الذي يبدو جامداً أو يتطور بشكل بطيء بناء على فهم انثروبولوجي للبيئات الثقافية والرمزية المنظور إليها كأنها بنية واحدة ومنسجمة وبالتالي كشف طبيعة دينامية التدين كممارسة لا يحكمها منطق فعل واحد بل تتعدد أشكال منطق الفعل بتعدد الفاعلين والرهانات والاستراتيجيات وذلك من منطلق كما يقول "انتوني جيدنز" أن مستويات المشاركة في شعائر العبادة أو الآثار الاجتماعية للمؤسسة الدينية لا تعبر بالضرورة عن العقائد والمثل العليا التي يتمسك بها الناس. فكثير ممن يعتنقون مبادئ دينية معينة لا يشاركون بالفعل في الخدمات والشعائر والاحتفالات الدينية. كما أن المشاركة الفعلية لا تعني بالضرورة عمق إيمانهم بهذه المبادئ، لأن مثل هذه المشاركة قد تتخذ طابع الممارسات الاجتماعية أو العائلية وربما السياسية". (43)

ببليوغرافيا:

- إكرام عدني. سوسولوجيا الدين والسياسة عند ماكس فيبر. منتدى المعارف. بيروت 2013.
- انتوني جيدنز. علم الاجتماع. ترجمة وتقديم الدكتور فايز الصباغ. مركز دراسات الوحدة العربية. الطبعة الأولى 2005.

---

(42) Alain Tourain « Pour la sociologie » Edition du seuil. 1974. P 22  
(43) انتوني جيدنز. علم الاجتماع. ترجمة وتقديم الدكتور فايز الصباغ. مركز دراسات الوحدة العربية. الطبعة الأولى 2005. ص 587



- براين ترنر. بيير بورديو وسوسيولوجيا الدين. ترجمة طارق عثمان. دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية. العدد 3. صيف علم 2017.
- الصنهاجي إدريس " التدين في المجتمع المغربي. مقارنة سوسيولوجية لمدينة وجدة. مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز. جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس. 2000.
- الصنهاجي إدريس. " علم الاجتماع الديني. مقدمات نظرية. مقاربات للنشر والصناعات الثقافية. 2018.
- فوزي بوخريص. مسألة القيم في التنظيمات الجمعوية بالمغرب. نح مقارنة سوسيولوجية. مجلة تحولات معاصرة. العدد 1. غشت 2016. ص 51
- Alain Tourain « Pour la sociologie » Edition du seuil. 1974.
- Luc Van Campenhout Raymond Quivy Manuel de recherche en sciences sociales. 4ème édition. Dunod. Paris 1995, 2006 ; 2011.

—